



تولستوي

الفرد الذي يختصر
عصرًا وأمةً وإنسانيةً
بقلم الدكتور علي سعد

الذي يتدفق خلف الاف الاشخاص التي تتحرك في قصصه وخلف الاف الافكار والاحاسيس والانفعالات والصور التي تتشابك في كل ما كتب وفي كل ما قال وكل مما عمل .

هذه الحياة الزاخرة الملتهبة الفنية استطاع تولستوي ان ينقلها الى آثاره واعماله .

وكانت حماسته في ابداع عاله الفني وفي تحريك ابطال قصصه وتنظيم مواقفهم للعب مصائرهم الفاجعة او المشرفة ، على قدر حماسته في الدفاع بقلبه ولسانه وماله ويديه عن القضايا العديدة التي تجتهد لها: ابتداء من انشائه المدارس لتعليم الفلاحين حتى دعوته لتوطيد السلام بوسيلة اللاعنفت والعودة للايمان .

وهذا التفاعل المستمر بين فن تولستوي وسلوكه ، يجعل من آثاره الادبية امتدادا اصيلا وانعكاسا صادقا لحياته وحياة المجتمع الذي يحيا في قلبه .

وهذا التكامل والتعاطي والتداخل بين فكره وعمله هو الذي ينفج آثاره حرارة الزخم وصدق الحضور الانساني .

وقد ادى تحطيم الحواجز بين ادب تولستوي والحياة ، حياته وحياة بيئته ، الى اغناء عاله الادبي واخصابه وتزويده بابعاد لا مثيل لها .

ولئن صح قول تاسو Tasso « صفة الخالق لا تليق الا بالله وبالفتان » فاننا نجد من هو اجدر بين الاناس المبدعين ، من تولستوي بحمل صفة الخالق ، بعد الله .

الم يقل عنه احد النقاد الانجليز ، بريستلي : « لقد كان يعمل كاله سعيد امام كون باكملة يلهو به »

الم يقل عنه غوركي نفسه : « انه يشبه الها .. ليس الها من الاول بل الها روسيا يجلس على عرش من خشب تحت شجرة زيتون » .

وتولستوي يستحق صفة الخالق ليس فقط بسبب غنى قصصه المدعش بالوجوه الحية وازدحامها بالعواطف والأهواء والامزجة والمواقف والمصائر التي لا حصر لها ، بل كذلك بسبب الانطباع الذي نحسه ، امام هذا الدفق من الحياة ، اننا لسنا الا امام جزء صغير من مظاهر القوة الخلاقة . ان تولستوي خالق ليس فقط بسبب ما حققه من فعل الخلق الراهن في عمره الطويل ، بل كذلك بسبب قوة الخلق وطاقة الابداع التي تبدو وكأنها لا حدود لها ، عنده ..

ويبدو هذا الفعل والطاقة الخلاقة عند تولستوي في الشعور الذي تعطيه رواياته الكبرى ، وخاصة « الحرب والسلام » و « البعث » ، بان الاحداث التي يصفها ليست الا نماذج من حياة عالم اكبر ومجزوءات مقتطعة من حركة تاريخية ابعد واكثر ايقالا في الزمن ، تبدأ قبل بدء الرواية ولا تنتهي بانتهائها .

ان رواية كرواية « الحرب والسلام » تبدو محاولة لا لقاء اصواء مركزه على بعض الزوايا من تيار الاحداث الذي لا انقطاع له ، من نهر الزمن الذي لا بداية له ولا نهاية .

كل فنان يمكن تعريفه ببعض عبارات . اذا ان بالامكان الاحاطة بآثار كل فنان واستشراق نتاجه من خارج ، وبالتالي استكشاف الملامح البارزة فيها .

يمكن تحديد كل اديب او فنان او مفكر ، بالكلمات القليلة ، لان لكل منهم حدوداً في وسع الكلمات المحدودة ان تعيها . اما تولستوي فيستعصي على التعريف الموجز .

فتولستوي من الاتساع والعمق والتنوع بحيث يبدو « لا متناهي » الحدود ، حتى لتصبح كل محاولة لتحديده ، في عجالة ضربا من اجتراء المطلق .

والاحساس بالمطلق هو اول ما يطالعنا عندما ندخل عالم تولستوي الفنان والانسان .

اننا نستشعر امام تولستوي بما سسماه رومان رولان (1) « دوار اللانهاية » اي هذا الدوار الذي نحس بشيئه عندما نقف على حافة الهوات العميقة او عندما نتلفت من علو شاهق الى آفاق السماوات السحيقة .

فمن التعمد تأمل تولستوي من خارج للحكم على آثاره وحياته . فلا خارج ظاهراً لها . ولا مجال للابتعاد عنها لانها تبدو وكأنها هي الحياة كل الحياة . او كأنها الوجود ، كل الوجود ، في اعماق واوسع وابعد ما نستطيع النفس الانسانية ان تمي هذه الحياة وتجسد هذا الوجود . فكيف يسعنا ان نختمر الحياة والوجود بضع كلمات .

مثلنا ، عندما نقرب من تولستوي ، مثل من يستكشف الفابسة العظيمة . نحن لا نقدر على فهم اسرارها ونوع احيائها من الخارج . ان علينا ان نلج الى قلبها ، وان نجوس في مسالكها وظلالها لنحس بمدى ما تزخر به من حياة في اشكال وصور لاحد لها ولنعرف تنوع الاصوات والتمتمات التي تعمرها وماهية الجمال الذي يظلم من تعانق الاضواء والعمائم والتغاف الخضرة والنسمات في ارجائها .

وانا تولستوي توحى بالكثير مما توحيه الفابات الملتفة . كلناهما تيمشان في النفس الرهبة من المجهول والرغبة الدائبة في اكتشاف هذا المجهول . وكلناهما تومشان الى ديبب تيار الحياة في المروق والافصان وتعطيان معنى الخصب والقوة والدينامية والجلال والجمال المرتبط بهذه الحياة .

وكما في اشجار الغابة ، نجد في حياة تولستوي وكتابات تلاقيسا وتالفا بين شموخ الجبين في التفاتته المشرقة نحو السماء بحثا عن الضوء والزرقة او سعيا وراء الروح ، وبين امتداد الجلود عميقا في الارض بحثا وراء دف التراب ونداوة الماء او سعيا وراء رسوخ الواقع المادي .

ومن يقرأ تولستوي ، من يقرأه في قصصه وفي اعترافاته ورسائله ، لا يستطيع ان يمنع نفسه من الانجراف مع « دوار اللانهاية » مع الاحساس بما يشبه الاحتباس والاختناق ازاء تيار الحياة الهادر

(1) رومان رولان : حياة تولستوي ص. ٤٠

هذا العالم الأرحب بهذا الزمان الأبعد اللذان يشوقنا دائما
تولستوي اليهما ولا يفتح لنا من خلال رواياته واقاصيصه الا كوى عليهما
يؤكدان لنا نظرتهم الشاملة الى ارتباط حياتنا الانسانية ، حياتنا
الفردية ، بحياة الاجيال التي تعاقبت على المجتمع ، وبالقوى التاريخية
التي كونت هذا المجتمع في الماضي والتي تحمل بذور التطور في
المستقبل .

هذه النظرة التاريخية للاحداث وللخصائص الانسانية اتبعت فقط
لبعض الادمغة الملهمة التي عرفت كيف تتفقت من خضم الاحداث
اليومية لترتفع الى الذرى العالية تستشرف منها سير التطور الانساني
وليست هذه النظرة اكثر الجوانب ثورية في عمل تولستوي .

فعلى الصعيد الفني الادبي كان مؤلف رواية « الحرب والسلام »
الفصل في تحرير فن الرواية من اطاره المطلق ، اطار وحدة الزمان
والمكان الذي اعتاد الروائيون حصر مواضيعهم فيه وان ينقله الى الافاق الرحبة
التي تبدو فيها الاحداث التي يرويها مسرحا صغيرا مقتطعا من عالم
اوسع ومشدودا بالاف الخيوط الى حركات المد والجزر التي تشكل سير
التاريخ العام .

فلا عجب ان احسبنا امام اثر فني مثل رواية « الحرب والسلام »
بلفحات النفس المحمي تهب علينا عاتية من صور الناس الاغنياء والفقراء ،
العظماء والبسطاء ، يعمون ويشقون ، يجنون ، ويكرهون ، يقتلون
ويقتلون في قلب الاحداث الضخمة التي كانت تدور حول الحروب
النابليونية وما بعدها .

افلا تذكرنا رحابة هذه اللوحات المشتعلة من حياة حقبة فاجسة
من تاريخ اوربا ، مسرح الصراع بين قوى انسانية ومادية جبارة ، الا
تذكرنا بالصور الدراماتيكية التي تظلمنا في ملحمة الالباة عندما تصور
اقدار البشر في اتون الصراع بين مدينتين وبين معسكرين من الهبة
الاولمبية .

فلا نعدو الواقع اذا رأينا في رواية « الحرب والسلام » وفي الروايات
والاقاصيص والسير والحكايات التي سبقتها وتلتها حلقات منقطعة من
سلسلة واحدة تشكل ملحمة كبرى لتحرك المجتمع الروسي والمجتمع
الاوربي في القرن التاسع عشر .
وهنا تبدو اهمية الدور الثوري الذي لعبه تولستوي على الصعيد
الاجتماعي والسياسي ايضا .

فهو باستخدامه العمل الفني كوسيلة للدرس واداة للتحقيق والكشف
من الظروف الاجتماعية والسياسية والنفسية التي تفسر سلوك الافراد
والجماعات وتوضح نزعاتهم وميولهم وسيرهم لتحقيق مصائرهم ، كان
اول اديب روسي ، وربما غربي يقيم الحلقة المفقودة بين ميدان الخلق
الفني ومجال النضال السياسي والاجتماعي والروحي .

اننا نغمر في تولستوي على مثل فريد لانسان يتجه نحو العمل
النضالي في سبيل اصلاح مجتمعه انطلاقا من حاجات دراساته التي
كان يقوم بها لاغراض فنه .

لقد كان الفن ، الجسر الرئيسي الذي عبر عليه تولستوي نحو
مواقفه الثورية ونزعاته الإصلاحية ، فكان الصوت المدوي الذي فضح
جرائم الحكم القيصري الاوتوقراطي ودعا الى نسف نظام الملكية الخاصة
والى تفويض دعائم الكنيسة الرسمية وكان اليد التي وجهت اقسى
الصفعات الى رياء الطبقة الفنية وزيف الاتجار بالملم والفن والحرية
والاشتراكية .

نحن لانشك في ان آثار تولستوي تحمل التناقضات التي لانحصى
في مواقفهم من القضايا الاساسية كالدين والحب والتربية والاعيان
والثورة والسلام والموت والاصلاح الاجتماعي حتى ليسع كل انسان
مهما كانت نزعتهم ، ان يجد في آثار الكاتب الكبير وفي حياته مايدعم
موقفه ، هو وارهه الخاصة .

وعجبنا لصدور مثل هذه التناقضات ، يتضائل لو تظلمنا السى
تولستوي لا بصفته فردا عاديا لا تملأ حياته الا حيزا ضيقا من حياة
مجتمعه ، وانما بصفته انسانا مبدعا استطاع من خلال تجربته الشخصية

ان يختصر حياة امة كبيرة وان يختزل التجربة الانسانية .
فنحن نغمر في آثار تولستوي وفي اعماله على اصداء لكل الاشواق
والمطامح وترجيحات لكل المعتقدات والافكار التي كانت تنبض في خواطر
واحدة الشعب الروسي ، بكل طبقاته وفئاته اثناء الحكم القيصري .
فكان تولستوي يشبه الوتر المشدود بين السماء والارض الروسية
يهتز لاقبل نامة والظف همسة تأتي من اية وجهة ومن ابعد افق في تلك
الدنيا الترامية الاطراف .

فلا عجب ان سمعنا هذا الوتر الصافي يرجع بكل ما في شرايينه من
قدرة على الترجيع والتصخير والترخيم اصداء الخواطر المتضاربة
والخلجات المتباينة تبين الفئات والطبقات الاجتماعية والاجيال المتعاقبة
التي كانت تتوزع بينها الملايين من ابناء روسيا القيصرية .

لا عجب اذن ان رأينا في كتابات تولستوي وفي تعاليمه مظاهر التمزق
من كل نوع تمزقه بين حقيقته كفتان وحقيقته كمتعبد صوفي وتمزقه
نداءات الحب والشفقة ومقتضيات المعرفة والحقيقة ولا عجب ان رأينا
يتأرجح بين اغراءات الاحاد ونداءات الايمان الديني العميق ويندفع
تارة في الدعوة لتأميم الموسيقى وتمجيد الفن وتارة في استنزال الامعات
على الفن والفنانين ، ولا عجب اذا رأينا من جهة يدعو لوقف الحروب
ولتغيير النظام الملكي والكنسي والاجتماعي الذي كان يؤدي الى تكديس
الثروات والسلطات في جانب القلة من الناس ، وتركيز الرؤس والجوع
والتخلف في جانب الاكثرية الساحقة من الشعب ، ومن جهة اخرى
يتمسك بمبدأ المحبة والاعتف واجهة النظام الاجتماعي .

هذه الافكار والمعتقدات والدعوات المتناقضة التي اعتنقها تولستوي
في آن واحد او في فترات متلاحقة كانت الوجوه للحقيقة التي كان
يجسدها في نفسه انعكاسا لحقيقة الانسان الروسي .

بجرتاند راسل

السلطة والفرد

اصدرت: دار الطليعة - بيروت - صندوق البريد ١٨١٣

لقد كان يعكس بكناباته وبمعتقداته هذه الحقيقة كفتان فرضت عليه حاجات فنه ان يصور المجتمع الروسي بكل تفاصيله والوانه واتجاهاته لقد غنى مجتمعه وعصره بكل ما فيه من عظمة وحفارة من بطولات وجرائم من خطايا وارهاصات خلقية وروحية سامية .

لا ، لم يكن تولستوي الصوت المبر عن حاجات طبقة واحدة من طبقات الشعب الروسي ، ولا وليد فترة واحدة من التاريخ الروسي . لقد كان تولستوي صوت عصره ومرآة المجتمع الروسي بأكمله ، وملقى القوى التاريخية التي كانت تعصف به ونهيء للمجتمع الجديد . لقد استطاعت نزعة الفنان الخالق ان تخرج تولستوي من حتمية وضعه كوريث لسلاسل ارسنقراطية عريقة وان تحرره من افكار الطبقة التي ينتمي اليها ومن اوهامها واطماعها وخرافاتهما ، ويتصوره للواقع الروسي البشع في العهد القيصري استطاع ان يزايل اسس النظام الاجتماعي الذي كان يمنح طبقة ، طبقة الملاكين النبلاء ، كل الامتيازات وكل السلطات لاستثمار الشعب الروسي وامتهانه واستعباده . ولكن تولستوي لا يعكس فقط روح الامة الروسية . انه احد الكتاب القلائل الذين استطاعوا ان يخرجوا من حدود اطراهم القومي ، وان ينهبوا للقاء النفس الانسانية في ابعد آفاقها .

فهو ، في حياته ، وفي كتاباته ، قد قام باوسع محاولة للولوج الى قلعة الاسرار التي ظلت الانسانية تقف على اعقابها حائرة ملهوفة . لقد دق بيديه وبرأسه الجدران الصماء ليسمع منها الاجوبة على الاسئلة الابدية التي ظلت الانسانية تلقها على الوجه الغيب المجهول : ما الموت والحياة ؟ ما الخير والشر والحب والبغضاء ؟ وهل من خالق للوجود ؟ واين موضع الانسان من الالحاد والايهان ، وهل من ضرورة للكنيسة للوصول الى الايمان ولعرفة الله ؟ وما علاقة الفرد بمجتمعه



وبالسماه وباي حق تمتلك قلة من الناس مصائر الكثرة الساحقة ؟ وما هي اسباب الحروب ومبرراتها وما هي الدوافع والاسباب والقوى التي تكمن خلف المصير الانساني ؟

كل هذه الاسئلة والاف امثالها وردت على قلم تولستوي في احاديثه . واذا لم يعط دائما الاجوبة الكاملة عليها او الاجوبة الصحيحة ، فحسبنا منه ان يكون انارها . وبذلك يجد الناس من كل الامم واللغات في آثار تولستوي ملامح الصورة الانسانية وخالصة للتجربة الانسانية باوسع حدودها .

لقد كان تولستوي مثالا فريدا للفنان الذي لا يكتفي بان يجعل فنسه صورة للعالم ، ووسيلة لاكتشافه . فقد كان يرى نفسه ملزما بان يغير هذا العالم بقلمه ويده ولسانه . لقد كان مشبعا بنزعة رسولية تحمله على الشعور بانه يحمل تبعات الامم والمذنبات الانسانية التي كشف عن اغوارها العميقة . فظل طيلة حياته مصلوبا بين مقتضيات فنه في تصوير الواقع ، واندفاعاته كمصلح اجتماعي لتغيير هذا الواقع . واذا كنا نجد الان ان الكثير من تعاليمه ضرب من اليوتوبيا واذا كانت التجربة التاريخية في مدى نصف قرن تنقض كل يوم صحة دعوته للاعنف في مواجهة العدوان والظلم والاستبداد .

واذا كنا نجد اخطاء كثيرة في آرائه حول التربية والفن والعلم والدين والاشتراكية والديموقراطية ، فانه لا يسمنا رغم كل ذلك الا ان ننحني امام ذكراه وان نعترف له بالجرأة والصراحة والاخلاص لنفسه ومجتمعه .

اننا تكبر فيه اقدامه على لعب دوره كاملا في هذا الوجود . لقد التى بكل ما يملك من مواهب وقوى خلافة وايمان وحماس ، وخاطر بكل قلذة من كيانه في سبيل ربح معركة الانسان ، ضد الطبيعة وضد شهوات نفسه .

ونحن نحب تولستوي بسبب حماسته تلك في المخاطرة بنفسه في كل المعارك الفكرية التي خاضها الانسان في عصره . نحن نحبه بالرغم من اخطائه بل بسبب تحمله اخطار الوقوع في الاخطاء . فهو ، بالرغم من كل الابعاد العميقة التي جال فيها بشخصه وفكره ، وبالرغم من هالات المبقرية والبطولة والقداسة التي احاطت باسمه ، بالرغم من كل ذلك ظل انسانا يخطيء ويصيب ، يحلم ويتعذب ، ييني ويهدم . وفي جميع هذه الحالات كان صادقا امينا لفنه وامعتقداته ولانسانيته .

ولننهي هذه الكلمة لانجد افضل مما كتبه مكسيم غوركي عن تولستوي عندما بلغه نبا وفاته :

« انا اعرف اكثر من غيري انه لا يوجد انسان احق من (تولستوي) بكلمة عبقرية ، ان فيه شيئا كان يعطيني دائما الرغبة في ان اصرخ لجميع الناس :

« انظروا ! اي رجل مدهش يعيش على الارض » . لانه قيل كل شيء انسان من انسانيتنا . انا اعرف النصب الكبير من الحياة التي عرف هذا الرجل ان يخصنيها وكم كان ذكيا ومخيفا بصورة تفوق الحدود الانسانية . لقد انار في نفسي احساس وانفعالات كبيرة ومنهله . وحتى الانطباعات المعادية التي احدها في كانت تتخذ اشكالا لا ترهق النفس ، ولكن كانت يمددها حتى الانفجار ويجعلها اكثر حساسية ورحابة وكبرا ، ولكم فكرت :

انا لست يتيما على هذه الارض مادام هذا الرجل حيا بارحائها . وها انذا اليوم احس بنفسني يتيما لانه مات ، فانا اكتب وابكي . « اما نحن ، الان بعد مضي نصف قرن على وفاة تولستوي ، نحن ابعد مانكون عن الشعور باليتم لكونه مضي من على هذه الارض ، بل على العكس ، نحن نشعر بان الانسان لن يكون يتيما مادامت آثار تولستوي باقية في افئدة الناس .

وبعد فاننا نشعر بالزهو والامتزاز لان الارض ، ارضنا ، حملت مثل هذا الانسان الملم ، هذا الانسان الذي تحدر من انسانيتنا . علي سعد